النزعة الوطنية في الشعر الحديث: الشاعر البارودي أنموذجا: دراسة وصفية تحليلية

M.S.M. Hafees[1], Nasr el din Ibrahim Ahmed Hussien[2]

[1,2] Department of Arabic Language and Literature,
International Islamic University Malaysia
hafeezzahry@gmail.com, nasr@iium.edu.my

ملخص البحث

يعدّ الشاعر محمود سامي البارودي (1839م-1904م) رائدا للنهضة في الأدب العربي الحديث؛ إذ جدّد أسلوب الشعر، واتخذ قوالب القدماء في الصياغة والأسلوب، وصبّ المعاني من تجاربه الذاتية وأحداث عصره حيث عايش أحداثا جساما؛ من مشاركته بالحروب، وثورته ضد الحكومة الفاسدة، ومقاومته ضد الاستعمار الأجنبي، ومعاناته تجربة النفي. فلجأ إلى الوطنية المصرية التي كان هدفها إنشاء رابطة عاطفية بين المصري ووطنه مع الحفاظ على الرابطة الدينية التي تربط بالخلافة العثمانية. قام الباحث بهذه الدراسة استكشافا لما وُجِّه إلى الشاعر من التشكيك والانتقاد بأنه لم يخلص في وطنيته المصرية، ولم يخرج في آثاره الأدبية من موضوعات عصره. فيهدف إلى تعريف أثر شخصية البارودي من خلال دوره في الشعر الوطني، ومناقشة الدوافع التي أدته إلى تناوله للأشعار الوطنية، وتسليط الضوء على أبرز الفنون الوطنية في أشعاره التي عالج فيها مشاكل عصره، وإبراز أهم الخصائص الفنية لها، وذلك اعتمادا على المنهج الوصفي والتحليلي. وقد توصلت نتائج الدراسة إلى أن الشاعر أخلص في وطنيته المصرية؛ إذ ساعدها بموهبته الشعرية الفذّة حيث عالج فيها قضايا عصره، مما جعل الشاعر البارودي ثائرا وشاعرا وطنيا مصريا يحب وطنه. فقد توَصّل الباحث أيضا إلى كشف بعض من أهم الخصائص الفنية لأشعاره الوطنية.

الكلمات المفتاحية: الأدب العربي الحديث، الوطنية المصرية، الأشعار الوطنية، الخلافة العثمانية.

المقدمة:

الوطنية هي رابطة عاطفية تربط بين أفراد الوطن، ثم بينهم وبين أرضهم، كما يلاحَظ من لفظ الوطنية نفسها من حيث يعود أصلها إلى الوطن: هو مكان إقامة الإنسان ومقره وإليه انتماؤه.[181] فقد ترسخت النزعة الوطنية في البلاد العربية التي تنطوي تحت الخلافة العثمانية حينما ضعفت أوضاعها منذ القرن السابع عشر الميلادي، مع أن تدخل الدول الأوروبية إلى الدول العربية أضرم نار الوطنية في جميع أنحائها. ففتح الأدب العربي الحديث بابه على مصراعيه لاتجاه جديد، وهو الاتجاه الوطني؛ إذ ظهرت حركات وطنية في بلاد العرب، فكان من حق الأمة على الأدب أن يوحي إليها بما يهمّها.

فقد عُرّف الشعر الوطني بنظم القصائد التي تحمل أبياتها هموم الوطن وآماله وآلامه، وتحتوي معانيها على عواطف الحب بالوطن، وما يعانيه من مشاكل تهدد سلامه وأمنه. فالشعر الوطني هو عطاء مشاعر وعواطف؛ وهو نوع من أنواع الشعر الوجداني.[182] وأما بالنسبة إلى ظهور هذا النوع من الشعر في العصر الحديث فأسبق الشعراء المصريين إليه رفاعة الطهطاوي (1801م-1873م)، ونرى أيضا في دراسة بعض الباحثين بأن صالح المجدي (1826م-1881م) أسبقهم إلى ذكر كلمات الوطن في مزدوجة له تسمى

---

[181] إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار، **المعجم الوسيط**، التحقيق: مجمع اللغة العربية، (الإسكندرية: دار الدعوة، د.ط، د.ت)، ج2، ص1042.

[182] انظر: كاظم حطيط، **دراسات في الأدب العربي**، (بيروت: دار الكتب اللبناني، ط١، ١٩٧٧م)،، ص٢٥١.

'الوطنيات'،[183] الحقيقة أن السبق يعود إلى الأول لأنه أسبق زمانا، فيبدو نزوعه الوطني في أول نشيد وطني عن مصر، بالإضافة إلى ما له قصائد يحث بها الشعب المصري على حب وطنه.

انطلق الشعر الوطني بالشاعر محمود سامي البارودي (1839م- 1904م) انطلاقا واسعا حتى عدّت مدرسته هي مدرسة وطنية وبعث أدبي، وقد تأثر بها كثير من الشعراء الوطنيين. فظهرت بعده قوة الشعر الوطني الذي خاض، وانبرى فيه كثير من الشعراء أمثال أحمد شوقي وحافظ إبراهيم في مصر، وأبو القاسم الشابي في تونس وغيرهم.

مشكلة البحث:

تكمن مشكلة هذه الدراسة في اثين: تشكيك بعض النقاد في ذاتية الوطنية للبارودي بأنه لم يخلص في ثوراته ضد الاستعمار والفساد السياسي؛ ولم يكن صادقا في وطنيته المصرية،[184] وفي انتقاد بعضهم بأنه لم يخرج في آثاره الأدبية من موضوعات عصره، ولم يأت بجديد في مضمون قصائده دون تقليده للقدماء في المضمون والأغراض الشعرية.[185]

الأهداف:

تهدف الدراسة إلى تعريف أثر شخصية محمود سامي البارودي من خلال دوره في الشعر الوطني، ومناقشة الدوافع التي أدته إلى تناوله للأشعار الوطنية، وتسليط الضوء على أبرز الموضوعات الوطنية التي عالج فيها قضايا عصره ومشاكله؛ وذلك خلال قصائده الوطنية التي احتوى عليها ديوانه،[186] وكشف أبرز خصائصها الفنية.

مناهج البحث:

1. المنهج الوصفي: هو الذي يعتمد عليه الباحث في دراسة حياة الشاعر البارودي ومراحلها، بغيةَ كشف الأوضاع الاجتماعية والسياسية في عصره مما تعين على معرفة مسيره إلى الأشعار الوطنية.
2. المنهج التحليلي: يستخدمه الباحث في تحليل الأشعار الوطنية للشاعر، استكشافا لألوانها ولخصائصها الفنية.

الدراسات السابقة:

مهما نحصل على أكثر من كتب علمية وبحوث أكاديمية حول البارودي في مختلف الاتجاهات، ندرك - حسب معرفة الباحث - هناك قلة قليلة من المساهمات العلمية في جانب الأشعار الوطنية للشاعر بتحليل ألوانها وموضوعاتها. ومن البحوث التي عثر الباحث عليها من دراسات تتركز على وطنية الشاعر، كتاب "محمود سامي البارودي شاعر النهضة"[187]

---

[183] انظر: محمد محمد حسين، **الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر**،، (الجماميز: مكتبة الآداب ومطبعها، ط٢، ١٩٦٢م)، ج١، ص61.

[184] انظر: علي الحديدي، **محمود سامي البارودي شاعر النهضة**، (القاهرة: مكتبة أنجلو المصرية، ط٢، ١٩٩٠م)، ص٣-٤، 279.

[185] انظر: حسين أبو يساني ونعمان انق، "ملامح التجديد في شعر البارودي". **مجلة اللغة العربية آدابها**، (جامعة تربت معلم، طهران، (٢٠٠٩-٢٠١٠م)، العدد: ٦، ص١٥.

[186] محمود سامي البارودي، **ديوان البارودي.** (بيروت: دار العودة، د.ط، 1998م، التحقيق: علي الجارم ومحمد شفيق معروف).

[187] انظر: علي الحديدي، **محمود سامي البارودي شاعر النهضة**، (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ط٢، ١٩٩٠م).

لعلي الحديدي، وكتاب "البارودي رائد الشعر الحديث"[188] لشوقي ضيف، والكتاب "الوطن في أدب الشراكسة (الأديغة) العربي والمعرّب"[189] لإيمان البقاعي، سلّط الكتّاب الضوء في كتبهم على حياة الشاعر وتكوينه الأدبي، وعلى الثوارة العرابية ودور البارودي فيها، وأشعاره على جناح الثورة، وفي المنفى بعدها. وتطرقت المقالة العلمية "شعر المنفى والمغترب لدى محمود سامي البارودي"[190] إلى نوع من ألوان الشعر الوطني للشاعر. لقد اعتمد البحث على التحليل الموضوعيى لشعر البارودي من صور الاغتراب والحنين اكتشافًا لتأثيرات النفي في مضامين شعره. والمقال "ملامح التجديد في شعر البارودي"[191] يركز على التجديد الملموس في شعره؛ إذ قدّم الباحث تقويما لما وصفه الشاعر من الآثار الفرعونية التي تكسو مشاعره الحميمة الوطنيته، ولما نظمه من الأشعار السياسية.

فقد استفاد الباحث من الدراسات المذكورة في وجوه؛ من حيث إنها تتناول عن شخصية الشاعر، وحياته السياسية ومسيره إلى الوطنية المصرية، وفي حين تتميز دراسة الباحث عنها بعنصر التحليل لألوان الوطنية في أشعار البارودي، وكشف أبرز الخصائص الفنية فيها.

المناقشة:

حياة الشاعر البارودي ومراحلها:

فقد ولد الشاعر محمود سامي البارودي بالقاهرة سنة 1839م لأبوين من الشراكسة، بناءً على الظروف التي عايشها تعتير حياته على ثلاثة مراحل؛ وبالتالي تغيرت نزعاته الوطنية المصرية. تمثل المرحلة الأولى حياته العسكرية فسمّيت بـــــ'المرحلة الوردية'. فقد برزت مشاعره الوطنية في قصائده التي تشوّق بها إلى موطنه أثناء مشاركته في الحروب.

أما المرحلة الثانية ففيها انخرط الشاعر في السلك السياسي المضطرب رغبةً في إصلاحه، وأسندت إليه وزارة الأوقاف، ثم الوزراة الحربية، ثم رئاسة الوزارة المصرية سنة ١٨٨٢م. كما واجه الحالة السياسية المضطربة بسبب كثرة الديون التي أثقلت كاهل حكومة إسماعيل (1863م-1879م)، وبالتالي سلط جباته على الفلاحين، فلما بلغ ارتباكه المالي أقصى مداه ففتح باب التدخل الأجنبي الأوروبي. ثم كان الخديوي توفيق (1879م-1892م) كان على درب والده في مهادنة الإنجليز. فقاوم الشاعر مع الشعب المصري برئاسة أحمد عرابي الحكومة الاستبدادية سنة 1882م، وانتهت الثورة بالهزيمة ثم حكم على زعمائها بالنفي إلى 'سريلانكا'، وكان من هؤلاء أحمد عرابي والبارودي. هذه المرحلة أبرزت الشاعر ثائرا وطنيا، وذلك مما أدى بعض الباحثين يسميها بـالمرحلة الحمراء، وبعضهم يذكرها بمرحلة الثورة.[192]

أما المرحلة الأخيرة فتسمى بالمرحلة الرمادية؛ وهي أمرّ المراحل التي مرت به، فتمثل حياته في منفاه (1882م-1899م)، وحياته في مصر في أخريات حياته، حتى وافته المنية سنة 1904م. فتفجرت وطنيته المصرية فيما نظم من القصائد المحتوية على الحنين

---

188 انظر: شوقي ضيف، **البارودي رائد الشعر الحديث**، (القاهرة: دار المعارف، ط٥، ١٩٨٨م).

189 انظر: إيمان البقاعي، **الوطن في أدب الشراكسة (الأديغة) العربي والمعرّب**، (بيروت: د م، ٢٠١٤م).

190 انظر: نركس كنجي ومجيد صادقي مزيدي، "شعر المنفى والمغترب لدى محمود سامي البارودي"، **مجلة الجمعية العلمية الإيرانية للغة العربية وآدابها**، (الجمعية العلمية الإيرانية للغة العربية وآدابها، طهران ٢٠١١م)، العدد: ٢١.

191 انظر: حسين أبو يساني ونعمان انق، "ملامح التجديد في شعر البارودي"، **مجلة اللغة العربية وآدابها**، (جامعة تربت معلم، طهران، ٢٠٠٩-٢٠١٠م)، العدد: ٦.

192 انظر: شوقي ضيف، **البارودي رائد الشعر الحديث**، (القاهرة: دار المعارف، ط٥، ١٩٩٨م)، ص66.

والتشوق إلى مصر، وذكريات الثورة، وتوبيخ رجال الحكم الرجعي وأنصاره الذين تخاذلوا عنه.

حملة التشهير على وطنية البارودي:
كانت رياح السموم تهب على البارودي وعلى زعماء الثورة العرابية؛ إذ أخذت الرجعية والاستعمار أقلامهما في حملة تشهير عليهم في الصحف المصرية، تحاول أن تثير الشبهات حول ربطهم بالثورة، وتنسبها إلى حاجات شخصية ذاتية، وتشكك في وطنيتهم، وذلك خشية استهداء الأجيال المصرية خطاهم. ومن التهم التي ألصقت بوطنية البارودي أنه انضم إلى الثورة طمعا أن يتمكن على العرش المصري.[193] نرى الشاعر البارودي يردّ على متهميه في قصيدة له.

يَقولُ أُناسٌ، إنّنِى ثُرتُ خالِعـــــــــــــــــاً وَتِلْكَ
هَنَـــــــــاتٌ لَمْ تَكُنْ مِنْ خَلاَئِقِي[194]

فاتجهت هذه الدراسة إلى كشف الغموض عن وطنية البارودي المصرية خلال فنون أشعاره الوطنية مع خصائصها الفنية، وذلك مما تبرز عن مدى عاطفته الوطنية الصادقة.

وطنية البارودي وعواملها:
اتجه البارودي إلى الوطنية التي كان هدفها إنشاء رابطة عاطفية بين المصري ووطنه مما تحفزه على الاهتمام بشؤون وطنه، مع الحفاظ على الرابطة الدينية التي تربط بالخلافة العثمانية.[195] وإذا كانت البعثات العلمية إلى الأوروبا، والتعليم، والصحافة، وما كشفه علم الآثار المصرية عن حضارتها، وما شاهده المصريون من نتائج السياسة الفاسدة، تعدّ من العوامل العامة التي قادت الشعب المصري إلى الشعور بالوطنية المصرية. فهناك دوافع خاصة ساهمت في وطنية البارودي.

فكان شاعرنا ذا شخصية فروسية زادته عنايةً بوطنه، ودفاعا عنه من التدخلات الأجنبية، ومقاومةً ضد السياسية الفاسدة، كما يبدو من القصيدة التي يبدأها الشاعر بتعريض المظالم في حكومة إسماعيل، ثم يتمها بما يشيد بفروسته.[196] وأتاحت له زيارته إلى فرنسا في بعثة عسكرية سنة 1862م فرصة الاطلاع على الحضارة الأوروبية المتطورة بعد الثورة الفرنسية التي كانت نتيجة البذرة الأولى للوطنية والقومية. كما كانت تجربته بالبعد عن الوطن في اشتراكه في الحروب وحياته في منفاه من البواعث على وطنيته. ومن ينابيع وطنيته أيضا انخراطه في مناصب السياسية كما سبق.

تخرج الشاعر البارودي من مدرسة جمال الدين الأفغاني الذي يعدّ رائدا من رواد النهضة المصرية، والذي ضاق بالأوضاع السياسية الفاسدة فانغمس فيها،[197] وكذلك تعلقت شخصيته بمحمد عبده الذي لعب دورا بارزا في مواجهة الأخطار السياسية، فكانت نظرتهما إلى القضايا الوطنية متشابهة من الناحية الاصلاحية.[198] وأما بالنسبة إلى علاقة البارودي

---

[193] انظر: علي الحديدي، **محمود سامي البارودي شاعر النهضة**، ص٣-٤، 279.
[194] محمود سامي البارودي، **ديوان البارودي** ، ص386-388.
[195] انظر: محمد محمد حسين، **الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر**، ص58- 73.
[196] محمود سامي البارودي، المرجع السابق، ص127-128.
[197] محمد عمارة، **جمال الدين الآفغاني موقظ الشرق وفيلسوف الإسلام** ، (القاهرة: دار الشروق، ط8، 1988م)، ص62.
[198] علي عبد الحديد المراشدة، **في الشعر الحديث: محمود سامي البارودي**، ص86.

بالثائر الوطني أحمد عرابي فكانت واسعة وطيدة تفسح المجال بينهما لتبادل الآراء الوطنية كما أسلفنا.

فنون الوطنية في أشعار البارودي:

1. مدح حكام مصر: تختفي عاطفة البارودي الوطنية في مدحه حكام مصر؛ من إسماعيل وتوفيق وعباس الثاني، لما قاموا بإصلاحات دفعت إلى النهضة المصرية، وذلك يدل على أن الشاعر يحمل في قلبه هموما أكبر من مدح الحكام،[199] على نحو ما تجلت وطنيته الخالصة في مدحه إسماعيل، حيث يرشده إلى أداء ما عليه من الحقوق لمصر ولمواطنيه.

طرب الفـــــــــؤاد وكان غير طــروب والمرء رهن بشـــــــــــاشة وقطوب

ما آثروك لهـــــــــــــــــــــــــــــــا بغير روية بل لاعتصـــــــــــــامهم بخير لبيب[200]

2. وصف مصر: الوصف أحد الأغراض الشعرية القديمة، وقد تناوله البارودي وقام بتجديده؛ إذ إنه افتخر بوصف الآثار الفرعونية المشهورة التي تظهر فيها العبقرية للفراعنة في المعمار والهندسة، واستعرض بذلك التاريخ المصري، واستهدف إلى استنهاض الهمم المصرية؛ فقد أبدع في وصفه لهرمي الجيزة وأبي الهول.

سَل الجيزةَ الفيحاءَ عنْ هرَمَى مِصرٍ لَعَلَّكَ تَدْرِي غَيْبَ مَا لَمْ تَكُنْ تَدْرِي

فكم أممٍ فى الدَّهرِ بـادَت، وأعصرٍ خَلت، وهُما أعجـــــــــوبَةُ العينِ والفكرِ[201]

أخذ بألبابنا ما في ديوان البارودي من الأشعار التي تصف الطبائع المصرية، روضتي المقياس والمنيل،[202] والنيل، والطبيعة العامة. فقد تجلت موهبة الشاعر الفذة في تلك الأشعار، كما ظهرت وطنيته الصادقة فيها كشاعر مصري.[203]

3. العلم والتعليم: البارودي أدرك كل الإدراك أن السرّ الحقيقي للنهضة الأوروبية يرجع إلى العلم، فشجع المصريين على العلم في قصائده، مستهدفا إلى تقوية المواطنين ماديا ومعنويا، وإلى حفاظ ثروة مصر وبركاتها من أيدي المستعمرين. والقطعة من القصيدة الميميّة التي تتضمن ثمانية وثلاثين بيتا، تخبر عن مدى اهتمام الشاعر بالتعليم. وأبرز الشاعر أيضا في تلك القصيدة عن أهمية المدارس، ودورها في نهضة المجتمع المصري.

بقوةِ العلمِ تقـــــــــــــــــــــــــــــوى شوكةُ الأممِ فَالْحُكْمُ في الدَّهْرِ مَنْسُوبٌ إِلَى الْقَلَمِ[204]

4. الدعوة إلى الثورة ضد الفساد السياسي: قد تناول البارودي قسطا وافرا في أشعاره من السياسة المصرية، حيث يدرك المتعمق فيها مدى إحساسه الوطني الذي لا يصده خوف؛ إذ كان يمتلك خطة سياسية دفعته دفعا قويا إلى الدعوة ضد السياسة التي تخبط فيها البكوات والباشات والخديويات. وهذه الأبيات من القصيدة العينية تعبر عن بداية ثورته

---

[199] انظر: علي عبد الحميد مراشدة، **في الشعر الحديث: محمود سامي البارودي**، ص119.

[200] محمود سامي البارودي، **ديوان البارودي**، ص٦٠-٦١.

[201] المرجع السابق، ص221-225.

[202] روضة المقياس: جزيرة في النيل شرقي الجيزة. روضة المنيل: هي جزيرة في نهر النيل بين القاهرة والجيزة.

[203] محمود سامي البارودي، المرجع السابق، ص67.

[204] محمود سامي البارودي، **ديوان البارودي**، ص511-512.

ضد الفساد السياسي، فتبلغ عاطفته الوطنية أقصاها فيستنهض همة المصريين ضد الخديوي إسماعيل.

فيا قومُ، هبُّـــــــــــــــوا، إنَّما العُمرُ فرصةً وفى الدهرِ طُرقٌ جَمَّةٌ ومنـــــــــــــــافِعُ

أَصَبْراً عَلَى مَسِّ الْهَـــــــــــــــــــــــوَانِ وَأَنْتُمُ عديدُ الحصى؟ إنِّى إلى اللهِ راجِـــــعُ[205]

القصيدة اللامية أشهر قصيدة قالها البارودي حينما تجمع هو والمثقفون ضد الخديوي إسماعيل، ونطّلع أيضا على أبيات تبرز مدى قوة وطنيته الصادقة حينما رأى البلاد المصرية أوشكت إلى الهلاك.[206] ارتفعت أصوات الشاعر أيضا بغية بث الحمية الوطنية عند المصريين، وذلك عند ما خاب أمل المثقفين في توفيق، ومضى يتخبط في سياسته المهادنة مع المستعمرين.[207] ونطلع أيضا في ديوان الشاعر على أبيات تتركز على بيان مساوئ الاستعمار على البلاد المصرية.[208]

5. المجلس النيابي والدستور: شاعرنا البارودي سار على مشروع سياسي، وهو تأسيس حكومة دستورية تعتمد على الشورى، فقد أصبح الشاعر بحق 'شاعر الشورى'، كما يعتبر أبا للدستور في مصر. وهو القائل: "كنا نرمي منذ بداية حركتنا إلى قلب مصر جمهورية مثل سويسرا ... سنجتهد في جعل مصر جمهورية قبل أن نموت".[209] ويرشد البارودي الخديوي توفيق إلى إنشاء المجلس النيابي، هو أكرم خطة، فلا يقوى ملك بدون مشورة، فلا الرأي يمضي بدون مشورة.

سنَّ المشـــــــــورةَ، وهى أكـــــــــرمُ خطَّةٍ يجرى عليها كل راعٍ مرشـــــــــدِ[210]

6. الإشادة بالأبطال الوطنيين: أشاد البارودي في قصائده عموما بالأبطال القدماء المصريين؛ مثنيا على ما أنجزوا من فتوحات حتى نالت بهم الأمة المصرية الشرف.[211] وعلى وجه الخصوص، تمسكته وطنيته بالتغني ببعض من الأبطال الوطنيين الذين قاوموا ضد الحكومة الفاسدة والمستعمرين، أو الذين حركوا موجات الشعور الوطنية عند المصريين، ومنهم جمال الدين الأفغاني،[212] ورفاعة الطهطاوي،[213] ومحمد عبده.[214]

7. حبه وحنينه إلى وطنه:

كان الشاعر البارودي يحب وطنه، وزادته تجربة النوى عن وطنه حبا به وتشوقا إليه، فنجد الشاعر يتشوق إلى وطنه وهو في حرب كريت1865م بأنه مغرم بحب وطنه، لأنه أول مكان حلّ به ونشأ في ربوعها.[215] كما نطّلع على أبيات من القافية الدالية أيضا،

---

[205] المرجع السابق، ص318-319.
[206] المرجع السابق، ص396-412.
[207] المرجع السابق ، ص 126، ص269-270.
[208] المرجع السابق، ص610-611.
[209] محمد محمد حسين، **الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر**، ج١، ص١٤١.
[210] محمود سامي البارودي، المرجع السابق، ص120-121.
[211] المرجع السابق، ص601-602.
[212] محمود سامي البارودي، **ديوان البارودي**، ص608-609.
[213] المرجع السابق، ص671-672.
[214] المرجع السابق، ص170.
[215] المرجع السابق، ص645-646.

فيتخيل الشاعر أن مصريا يأتي إليه بصورة البرق يأرقه ويُذكِّره بما مضى من حياته، ويخاطبه الشاعر.

سَرَى الْبَرْقُ مِصْرِيّـــــــــاً فَأَرَّقَنِي وَحْدِي وأَذْكَرَني ما لَسْتُ أَنْسَـــــــــــاهُ من عَهْدِ

فيـــــــــــــا بـــرقُ حدِّثنى، وأنتَ مصدَّقٌ عَنِ الآلِ وَالأَصْحَابِ مَا فَعَلُوا بَعْدِي[216]

وكذلك حثته دوافع الفراق إلى أن يتغنى بالحني إلى مصر يوم عيد الفطر وهو في معركة روس سنة 1879م، يفتح الشاعر تلك القصيدة بالدعاء أن يريه الله مصر.[217] فقد بدأت قيثارة الشاعر تتغنى بالحنين إلى وطنه منذ فارقه حينما نفي؛ من حيث نظم قصيدة - تعدّ نشيدة التوديع- افتتحها بالغزل بطريقة الشعراء الجاهليين.[218] واحتلّ شعر الحنين إلى وطنه على أوسع جزء في سرنديبياته، على نحو ما يلقانا الشاعر بتصوير شدة شوقه إلى وطنه بأنه كالإبل العطشان.

مَتَى تَرِدِ الْهِيمُ الْخَـــــــــــــــــــــــــــــــوَامِسُ مَنْهَلاً تَبُلُّ بِهِ الأَكْبَادَ وهْيَ عِطَـــــــاشُ؟[219]

الخصائص الفنية للأشعار الوطنية عند البارودي:

1. البحور العروضية: من خلال استقراء الأشعار الوطنية التي حوى عليها ديوان البارودي، لاحظ الباحث أن الشاعر استخدم البحور العروضية الآتية: الطويل والبسيط والكامل والخفيف والسريع والمتقارب. وأن البحر الطويل أكثر البحور استعمالا في أشعاره الوطنية، لأنه يفيده طوله ما يعطيه إمكانية كبيرة للسرد وفيه قوة، ويحتوي على المعاني الجادة التي تتلائم مع أعاريضه، كشاعر ثائر وطني، وذلك مما جعله يسمَّى 'رب السيف والقلم'.
2. طول القصيدة: اتجه الشاعر البارودي في أشعاره إلى قالب القصيدة الكلاسيكية الطويلة كرائد لمدرسة الإحياء والبعث، لأن القصيدة الطويلة قد وقعت موقعا عاليا عند النقاد والأدباء. فنرى قصيدته العينية المذكورة تكونت على سبعين بيتا، وقصيدته اللامية على خمسين بيتا، وقصيدته الميمية على ثمانية وثلاثين بيتا.
3. الألفاظ: اعتمد الشاعر في صياغته على الألفاظ الجزلة الرصينة استخرجها من تراث الأدب العربي، وقد اختار ألفاظا متناعمة ذات الجرس الموسوقي، مثل 'مرعى أنسي' و'ملعب لهوي' و'جنى صبوتي' و'مغنى صحابي' في القصيدة التي تشوق فيها إلى موطنه، ومثل 'قلبي' و'نفسي' و'صارمي' في الأبيات التي أبرز فيها شجاعته وحماسته ضدّ الحكومة الاستبدادية. وقد اتجه الشاعر أيضا إلى اختيار الألفاظ الشديدة في مقاومة الفساد السياسي مثل وغد، ودَسْت، واضطرب، والخمل، والغدر، والخطل، قلل وغيرها.
4. وحدة الموضوع: قصد النقاد بها وحدة الموضوع، ووحدة المشاعر التي يثيرها الموضوع وما يستلزم ذلك من ترتيب الصور ترتيبا تنتهي به القصيدة إلى خاتمتها. فنرى الشاعر

---

[216] المرجع السابق، ص134-135.
[217] المرجع السابق، 143-144.
[218] المرجع السابق، ص626-627.
[219] المرجع السابق، ص292-293.

يتجه إلى هذا الفن في قصيدته العينية،[220] وفي قصيدته اللامية[221]، في تعريض المضالم في الحكومة الفاسدة. كما تركزت قصيدته الميميّة على بيان أهمية التعليم وودور المدارس،[222] كما اتخذ الموضوع في إشادته بالأبطال الوطنيين.

5. المعارضات: وقد بلغت معارضات البارودي في ديوانه كله سبعا وعشرين قصيدة، حيث يعارض فيها أربعة عشر شاعرا منهم النابغة الذبياني، وعنترة، والمتنبئ، وأبو فراس، والبوصيري.[223] فما نجد في ديوانه من العبارات (قال يروض القول) أو(قال يروض الشعر) أو(قال على طريقة العرب)، فهي تشير إلى هذه المعارضات.[224] وهذه قصيدة للمتنبئ، مطلعها:

أودّ من الأيام ما لا توده أشكو إليها بيننا وهي جنده

عارضها البارودي في البحر الطويل والقافية الدالية بقصيدة في تعريض المظالم في حكومة الخديوي توفيق، مطلعها[225]:

رضيتُ منَ الدنيا بما لا أودُّهُ وَأَيُّ امْرِىءٍ يَقْوَى عَلى الدَّهْر زَنْدُهُ؟

فنجد البارودي يعارض قصيدة الشاعر أبي فراس بقصيدة عالج فيها ببدأ ثورته ضدّ الحكومة الفاسدة، مطلعها:

متى أنتَ عَن أحموقةِ الغىِّ نازِعُ وفى الشَّيبِ للنَّفسِ الأبيَّةِ وازِعُ؟

6. أسلوب الحوار: فقد حافظ الشعراء الفحول منذ العصر الجاهلي حتى العصر الحديث على هذا الفن الجميل، وتناوله البارودي في أشعاره الوطنية، فيتحدث تارة مخاطبا وطنه ومتشوقا إليه.[226]

أَرَاكَ الْحِمَى! شَوْقِي إِلَيْكَ شَدِيدُ وصبرى ونومى فى هواكَ شريـــدُ

وتارة، يخاطب البرق فيتحدث معه ويسأله عن أحبابه في مصر،[227] وأحيانا يخاطب عناصر الطبيعة المصرية من النيل وروضاتها،[228] ونطّلع على بعض الأبيات التي يخاطب مع نديميه في خياله على عادة الشعراء السابقين في مخاطبتهم مع الصاحب الوهمي، وذلك فيما يتشوق إلى موطنه من منفاه.[229]

يا نديميَّ في 'سرنديبَ' كفـــــــــــــــا عَنْ مَلاَمِي، فَلَيْسَ يُغْنِي الْمَلاَمُ

وَاذكرا لي 'فسطاطَ' مصرَ؛ فإني بِهَوَاهَـــــــــــــــا مُتَيَّمٌ مُسْتَهَـــــــــــــــام

وأكثر من مخاطبة الشعب المصري، وذلك في تنبيهم على الحالة السياسية المصرية، واستنهاضهم ضدّ الفساد السياسي، وبيانهم عن أهمية العلم والحضارة المصرية العريقة.

---

[220] محمود سامي البارودي، **ديوان البارودي**، ص316-317.
[221] المرجع السابق، ص396-412.
[222] المرجع السابق، ص511-512.
[223] انظر: علي عبد الحميد مراشدة، **في الشعر الحديث: محمود سامي البارودي**، ص163.
[224] انظر: يوسف خليف، "شعر البارودي بين التراث والمعاصرة"، **دورة البارودي: أبحاث الندوة ووقائعها**، (مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت ١٩٩٤م)، ص43.
[225] محمود سامي البارودي، المرجع السابق، ص 122-128.
[226] المرجع السابق، ص143-144.
[227] محمود سامي البارودي، **ديوان البارودي**، ص134-135.
[228] المرجع السابق، ص370-371.
[229] المرجع السابق، ص624.

7. الإيحاء: يمثل الإيحاء آلة من آلات التعبير الجميل البليغ من حيث إنه يتطلب استخدام كلمة أو عبارة لإعطاء معلومات معينة بشكل غير مباشر، وقد وظّف الشاعر البارودي في أشعاره الوطنية إيحائاته الجميلة بلغة جذلة ذات إبداع فني. وهذا البيت الآتي استنهض به الشاعر الشعب المصري ضدّ إسماعيل، وقد اختار الشاعر العبارة 'عديد الحصى' للإيحاء والتنبيه إلى كثرة عدد الشعب المصري.

أَصَبْراً عَلَى مَسِّ الْهَـــــــــــــــــــــــــــوَانِ وَأَنْتُمُ عديدُ الحصى؟ إنّي إلى اللهِ راجِـــعُ

وفي البيت الآتي يرمز الشاعر إلى تجربته بحالتي الرخاء والشدة للمصريين عبر توظيف كلمتي 'صاب' و 'عسل'

حلبتُ أشطـــــــرَ هذا الدهـــــــــرِ تجربـــــــةً وَذُقْتُ مَافِيهِ مِن صَابٍ، وَمِنْ عَسَـــــــلِ[230]

ويرمز الشاعر في البيتين إلى استعراض عظمة هرمي الجيزة من الناحية المعمارية، ويعبر بأن صرح بابل لا يقدر على ذلك، ويعترف إيوان كسرى بعجزه عن بناء مثل هذه الآثار، كما يوحي إلى رفعة شأن الأهرام من حيث يوظف قوله: أن هاروت لو اطلع على ما في قمتي الهرم من الحقائق العلمية لترك الكهانة.

يُقَصِّرُ حُسْنـــــــاً عَنْهُمَا (صَرْحُ بَابِلٍ) وَيَعْتَرِفُ (الإيـــــــــوَانُ) بِالْعَجْـــزِ وَالْبَهْرِ[231]

فلو أنَّ 'هـاروتَ' انتحَى مَرصديهِما لألقى مَقاليـــــــــــــــدَ الكَهـــانةِ والسِحرِ[232]

8. الاقتباس: هو أن يميل الأديب إلى دعم فكرته أو تحسينها بما يمتلكه من الثقافة الموروثة من القرآن الكريم والحديث، والموروث الشعري والنثري، وما يصاحبهما من من حكم ومثل. نرى الشاعر البارودي يقتبس في أشعاره الوطنية من الآيات القرآنية كما قام باقتباس كلمتي 'حصيدا خامدين' من الآية {فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ}[233]

فكونوا حصيداً خامدينَ، أوِ افزعـــــــوا إِلَى الْحَرْبِ حَتَّى يَدْفَعَ الضَّيْمَ دَافِعُ[234]

تطرق الشاعر إلى الاقتباس من قول الحجاج بن يوسف في خطبته 'إني أرى رؤوسا قد أينعت وحان قطافها، وذلك في البيت الآتي الذي استهدف به الشاعر إلى استنهاض الهمم المصرية.[235]

أرى أرؤساً قَد أينعتْ لِحصـــــــــــــــــــادِها فَأَيْنَ وَلاَ أَيْنَ السُّيُوفُ الْقَوَاطِـــــــعُ؟

---

[230] حلب الدهر اشطره: جرب الأمور. صاب: شجر مر له عصارة بيضاء بالغة المرارة.

[231] بابل: مدينة قديمة على جانب الأيسر من نهر الفرات. قصر بابل: قصر لبختنصر. ويريد بالإيوان: إيوان كسرى أنوشروان وقصره الأبيض في المدائن.

[232] هاروت: اسم رجل أو ملك كان يعلم الناس السحر في مدينة بابل. انتحى الشيئ: قصده. مرصديهما: قمتا الهرمين.

[233] الأنبياء، الآية: 15.

[234] محمود سامي البارودي، **ديوان البارودي**، ص318-319.

[235] المرجع السابق، ص318-319.

9. أسلوب الاستفهام: يعدّ أسلوب الاستفهام من الأساليب الشائعة في الشعر العربي قديما وحديثا لما له من التميز بحسن الدلالة، ولما له من قيمة جمالية يسبغها على النص. فنرى الشاعر يبدأ قصيدته العينية التي عبر بها عن ثورته ضد الفساد السياسي بأسلوب الاستفهام،[236] ولعل الاستهلال به يرجع إلى أن التعبير به عن المعاني يكون أبلغ منه بالإخبار بشكل مباشر.

متى أنت عن أحموقة الغي نازع وفي الشيب للنفس الأبية وازع؟

وكذلك نرى الشاعر يخرج بأسلوب الاستفهام عن معناه الحقيقي إلى أغراض أخرى من الشكوى، والتعجب، والنفي، والتمني، والتقرير والتوبيخ وإظهار الحسرة. كمثال نرى ما وظّف الشاعر أسلوب الاستفهام التوبيخي في البيت الأتي، وقصد به إلى إقناع المصريين شعور الوطنية المصرية وإلى دعوتهم ضدّ السياسة الفاسدة.

أَصَوَّحَتْ شَجَرَاتُ الْمَجْدِ، أَمْ نَضَبَتْ غدرُ الحميةِ حتى ليسَ منْ رجـــــــــــــــــلِ؟

نتائج البحث وخاتمته:

قد توصلت الدراسة إلى ما يأتي من النتائج المهمة:

1. اتجه الشاعر البارودي إلى الوطنية المصرية الصادقة؛ إذ إنه اهتم بشؤون مصر وعمل على نهضتها خلال تناوله قسطا وافرا في أشعاره من مشاكل عصره وقضايا الشعب المصري. ومن أهم ما دفعته إلى ذلك شخصيته الفروسية، وحياته العسكرية، وتجربته بالبعد عن الوطن، وعلاقته بالوطنيين أمثال أحمد عرابي، وجمال الدين الآفغاني، ومحمد عبده.
2. تنوعت اتجاهاته الوطنية في أشعاره باعتبار المراحل التي تجاوزها في حياته؛ من حيث إنه تشوّق إلى موطنه وهو في الحروب، وقاوم ضدّ الفساد السياسي الداخلي، والاستعمار الأجنبي الخارجي مستهدفا إلى تأسيس حكومة ديمقراطية في البلاد المصرية وهو منخرط في السياسية المصرية، وأبرز حنينه إلى وطنه وهو في منفاه.
3. ومن فنون وطنية البارودي في أشعاره: مدحه لبعض من حكام مصر، ووصفه بالآثار الفرعونية والطبيعة المصرية، واهتمامه بالتعليم، ودعوته إلى الثورة ضد الفساد السياسي وإلى المجلس النيابي والدستور، ومقاومته للاستعمار، وإشادته بالأبطال الوطنيين، وحبه وحنينه إلى وطنه.
4. استنتج الباحث أهم الخصائص الفنية في أشعار البارودي الوطنية بالنسبة إلى بحورها العروضية، وطول قصيدتها، وألفاظها، ووحدة الموضوع، والمعارضات الشعرية، وأسلوب الحوار، والإيحاء، والاقتباس، وأسلوب الاستفهام.

المراجع والمصادر:

القرآن الكريم

أبو شادي، أحمد زكي. (٢٠١٢م). **قضايا الشعر المعاصر**. (د.ط). القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.

البارودي، محمود سامي. (١٩٩٨م). **ديوان البارودي**. (د.ط). علي الجارم ومحمد شفيق:التحقيق. بيروت: دار العودة.

[236] المرجع السابق، ص316-317.

الحديدي، علي. (١٩٩٠م). **محمود سامي البارودي شاعر النهضة**. (ط٢) القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.
حسين أبو يساني ونعمان انق. (٢٠٠٩-٢٠١٠م). "ملامح التجديد في شعر البارودي". **مجلة اللغة العربية آدابها**، العدد: ٦. طهران: جامعة تربت معلم.
حسين، محمد محمد. (١٩٦٢م). **الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر**. (ط٢). الجماميز: مكتبة الآداب.
حطيط، كاظم. (١٩٧٧م). **دراسات في الأدب العربي**. (ط١). بيروت: دار الكتب اللبناني.
الحوفي، أحمد محمد. (١٩٧٨م). **وطنية شوقي: دراسة أدبية تاريخية ومقارنة**. (ط٤). القاهرة: الهيئة المصرية للكتاب.
خليف، يوسف. (١٩٩٤م) شعر البارودي بين التراث والمعاصرة. **دورة البارودي: أبحاث الندوة ووقائعها**، الكويت: مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري.
الدسوقي، عمر. (د. ت). **محمود سامي البارودي**. (د.ط). القاهرة: دار المعارف بمصر.
الشنطي، محمد صالح. (٢٠٠٨م). **الأدب العربي الحديث: مدارسه وفنونه وتطوره وقضاياه ونماذج منه**. (ط٦). حائل: دار الأندلس للنشر والتوزيع.
ضيف، شوقي. (١٩٨٨م). **البارودي رائد الشعر الحديث**. (ط٥). القاهرة: دار المعارف.
محمد مندور، والدسوقي عبد العزيز، وأديب مروة. (١٩٧٠م). **أعلام الشعر الحديث**. (ط١). بيروت: المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع.
مراشدة، علي عبد الحميد. (٢٠٠٩م). **في الشعر الحديث محمود سامي البارودي: دراسة فنية**. (ط١). الأردن: عالم الكتب الحديث.
نركس كنجي ومجيد صادقي مزيدي. (٢٠١١م). "شعر المنفى والمغترب لدى محمود سامي البارودي". **مجلة الجمعية العلمية الإيرانية للغة العربية وآدابها**. الجمعية العلمية الإيرانية للغة العربية وآدابها. طهران. العدد: ٢١.
هلال، محمد غنيمي. (١٩٩٧م). **النقد الأدبي الحديث**. (د.ط). القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.